نقوش خفية

بقلم.. ليلى خالد الشريف/ مصر

قشّر اللغُط الصادر من حفيدي الوسيم صاحب السن اللبني -كان يحمل توست بيده وحقيبته الزرقاء خلف ظهره غشاء الهدوء الذي كان يغلف عصرية يوم الأحد. انتابني إحساس بأن وقت نشرة الأخبار سينتهي مبكرا. كانت لجلجته عبارة عن ثرثرةٍ أو رجاء وتمني دائمُ الترداد، كالاتي أسمعها الآن:

جدتي أرجوك، أبي مشغول وأنا لا أحب الذهاب مع أمي؛ فهي لا تحب الألعاب.. أرجوك.

أفسده التدلل والانشغال الكثير عنه، لكنه أفضل من غيره لا تستهويه التكنولوجيا، ليس كأحفادي الآخرين مدمن على أشياء إلكترونية... عجبت مني ومنك يا حفيدي... مختلفان في العمر ومع هذا يحيطنا الشعور بالوحدة.

انحنيت بظهري المتألم لأطبع قبلة عميقة على خده؛ هو يستحقها.. لأفاجئ بابتعاده عني وملامح الانزعاج ظهرت عليه، صاح علي قائلا:

ماذا تفعلين يا جدتي! لا تقبليني على وجهي، فأنا أصبحت رجلًا لن تقبله سوى زوجته.

همهمت للحظة من الزمن بينما أنظر إليه.. وأنا من اعتقدت أنه أكثر أحفادي تأدبا... فعلًا، ما المشاغب سوى ابن لمشاغب. فكريم آخر النفحات الإلهية، آخر من أنجبته، وسهرت الليالي من أجله، ليتزوج بليدة أرخت عليه الستارة وأفسدت من ربيته.

أتساءل أين كان عقلي عندما وافقت عليها؟ لكن ما فات قد مات... لا فائدة من الملامة الآن.. الآن يوجد صغيرهما أمامي يتفوه بحديث أكبر من عمره. سألته و أنا أعلم إجابته:

من علمك قولك هذا؟ ألست صغيرا على التفكير بالزواج يا فتى!

أجابني ببراءة الأطفال، شجاعة الفرسان:

لستُ صغيرًا! والزواج لم يكن يوما له عمرا، ألم تتزوجي يا جدتي وأنت صغيرة؟

تأملت ملامحه وبالأخص عيناه التي أخذت كثيرا من"أطلس" ثم انتقلت إلى خشمه الصغير الذي تصبح مقدمته حمراء عندما ينفعل، تنهدت مستسلمة له:

تذكرني يا نور بجدك رحمه الله.

سألني بينما حاجبيه معقودين: لِمَ تقولين رحمه الله؟ هل مات جدي؟ بابا قال بأنه سافر وسيعود قريبا!

- الرحمة تجوز على الميت والحي يا نور.

أبحرتُ بنظري إلى ملامحه التي أخذت كثيرًا من أطلس، فتذكرتُ بدايتنا وكيف كانت حياتنا جميلة، ممتلئة بالعاطفة الجياشة... بل شقية ومهلكة للروح والجسد.

لو يعلم نور بأن جده قد مات داخل قلبي قبل أن يرى هو الدنيا بعينيه الصغيرة، وأنه قد فرق القدر من طرقنا!... سيعلم يوما ما؛ فالزمن مخبرٌ محترف يقتنص القلوب فيلسعها.

ليس الزمن وحده القناص فنور بدوره تعلم كيف يقتنص فرصته، سألني مرة أخرى كان سؤاله أقرب للرجاء: ألن نذهب يا جدتي؟

لا والذي بيده نفسي لن يخدعني وجهك يا نور البريء الممتلئ ذي الوجنةِ الورديةِ.... تمالكي نفسك يا رواسي، سينتهي بكِ الحال ترضخين لدلعه المسخ وطلباته التي لن تنتهي، لا تحادثي قلبك يا رواسي فجسدك أصبح كبيرا لا يستحمل الإرهاق... هو أيضا لن يحتمل الوحدة، لا بد أن يملأها أحدهم... أمري لله: أين تريد أن تذهب يا نور؟

- الكرنفال.

لم؟.. إنه ممل ولا يوجد به ألعابٌ كثيرة!

- لأنك أخذتي سامي وأسماء إليه، بينما أنا فالبطة السوداء!
- يا حفيدي الأجمل، أنت وقتها لم تكن متواجدًا... لا تحزن فأنا لا أملك نورا غيرك! أسرع وأحضر لي عكازي... بسُرعة قبل أن يتغير رأي.

يا لعجزي.. أصبحت شيخا أرى الشخص اثنين، وصار سندي قطعة من شجرة عامرة.

يا لعجزي؟ ما زلت في صحتي وعقلي، ربما بعض إرهاق وضيق تنفس وضرب إبر أنسولين في جسدي وحبوب صفراء وحمراء لا أعلم كيف أتهجأ اسمها... لكني ما زلت على قيد الحياة وأفكر بجدية بتغير غرفتي مع غرفة حسان؛ فهذه في الدور الثاني. ثم أتكر كيف أن ابني البكر ليس حسن الطباع على الإطلاق.. تتراجع الفكرة بل تضمحل!

رحماك يا الله، في كل مرةٍ مع كل خطوة أخطوها على السلالم تصدر ركبي صريرًا لتذكرني بعمري فأجاريها بإطلاق تنهيدات وعبارات مثل: عناء فوق مشقة!

- أمي! إلى أين؟

نظرت إلى مصدر السؤال بينما شردت ضحكة من بين شفاهي الذابلة، ذكرني بمثل شعبي يقول: ذكرت القط أتاك ينط.

- سآخذ نور إلى الكرنفال.

نظر إليَّ وكأنه يكتم ضحكته، سألني بنبرة وكأنه يسخر مني.. من والدته:

أتقصدين الكرنفال! عجيب ظننته قد انتهى!

على أي حال، أمي ألم نتفق على مقابلة ليمونة؟

جل ما امتلأت به أفكاري.. هل قال لتوه ليمونة؟ من ليمونة!. إن سألته سيسخر مني وكأني لست من أنجبه لهذه الدنيا، قائلًا: هل أصابك الخرف!.. وإن لم أجبه سيردد طيلة اليوم بمزاج عكر: لقد تتجاهليني وأنا من يريد راحتك، وأنا وأنا!

- أمي! يا تراه أصابك الزهايمر؟

وها هي نبرة القط الساخرة التي وضعتُ لها حسبانًا ونظراته المستفزة، مع كل يوم يقتربون به إلى الاستقلال التام يقل احترامهم لي واحتمائهم تحت جناحي.

أنا لستُ مصابة به لكن حين أراك يرتفعُ الكولسترول وضغط الدم والسكر.

- كم هذا مُطمئِن للأعصاب. ماما رواسي كما هي لم يتغير حالها.

أمي، ليمونة هي الخادمة الجديدة التي اتفقنا على استخدامها...

- من أنت؟ من أنا؟؟ لطفك يا لطيف، أظنني أصبت بالزهايمر. هيا يا نور أسرع..

فلتحدث نفسك كما تشاء، لن أقبل قطعًا على ما تقترحوه أنت وأخوتك بالخفاء (فلنجلب لها خادمة لكي نرتاح) وأعيش أنا ما تبقى لي من أيام سجينة للوحدة.

هذا بيتي الذي أهدرتُ عمري من أجل إعماره، وحاربت أهلي كي أسكن به مع أطلس متغاضية عن فقره.

فقر؟ هل بعد عمرٍ سأشتكي وأسخط؟ ألم يرزقنا الله أكثر مما حلمنا به؟ ربما ليس كلُ شيء أنا حلمتُ به قد تحقق ولكن.. بالحمد تدوم النعم، والحمد لله حياتي أفضل من غيري.

مثلا: تحية ابنة الخباز.. يا إلهي، كم كانت تلك الأيام جميلة عندما كنا نلعب في الحارة، كانت الأنفس طيبة لا تحقد ولا تحسد.

الجيران أقرب أن يكونوا أسرة.. ليس كاليوم، لا تعرف حتى كيف يبدو جارك!

يا تراه ماذا فعل بها الزمن؟ هل تحررت من قيود والدها..؟ أم أُستعبدت لرجلٍ آخر تحت مسمى الزواج؟، أما زالت تناطح مثلي كالثور العنيد؟ أم تحت الأرض ترتجي من أبنائها الدعاء والصدقة؟

صرخة نور بالكرنفال كانت كفيلة لإيقاف تدفق الذكريات العابثة، فتبسمت على حالي... كنت وما زلت حالمة.

أحمدك يا لله بأني أخذت محفظتي معي؛ فحدقتا نورٌ الكهرمانية تشتعل من الحماس! سألته أي الألعاب يود بتجربتها فهز رأسه نافيا جميع الخيارات ثم قال:

السيرك، خياري الأول و الوحيد.

السيرك، عرض صنع لإهدار المال ففي البيت تستطيع أن ترى حيوانات عجيبة ترقص وتزمجر وأحيانًا تؤدي حيلًا خطيرة.

كتلك المرة التي زارتني فيها نجمية ابنتي وتوأمها.. لم يفتأ سامي عن القفز على الأريكة و لم تتقاعس أسماء عن اللاحق به متناسية الفارق

بينهما، ليضطرب توازنها وينتهى العرض الشنيع برضا على كوع وخدشٍ على شفة وذراع كرسيّ المفضل مخلوع.

- جدتي! أهذا كله تفكرين؟ أصبحت تفكرين كثيرا... هذا ممل!

رحماك يا الله من عذاب هذا الجيل، وتعريه من الأخلاق وانعتاقه من الاحترام، أشرت بعكازي على كشك التذاكر قائلة:

تعال نشتري التذاكِر... نور لا تجري مبتعدا عني!

أصبح كالبرق فور سماعه ما يحبه، لطفك يا الله، قد نسيتُ متى كانت اللحظة التي اشتققت فيها عن الدنيا وتشبثُ بجدار الزمن بينما الجميع يركض مبتعدا عني، يركض يشق طريقه.

توجهنا إلى طابور التذاكر وبعد مرور ربع ساعة من الوقوف، والحمد لله أننا تحركنا وإلا كانت قدمي تهشمت أكثر مما هي عليه.

وعلى غفلةٍ مني باغتني ضوء ساطع، جعلني عمياء لدقيقة كاملة.

أفاقت جفوني لتشهد عيني الضعيفة المتألمة بائع التذاكر يحرك شفاه الداكنة أثر التدخين قائلًا:

- آسف يا جدتي، لا يسمح لدخول من هم كبار السن.

انعقد لساني وسهيت عن الوجود.. لقد مرت فترة طويلة لم أسمع هذا التحييز، هذه العنصرية، والآن أسمعه من فتى لم يتعدى الثلاثين يرتدي قرطًا في أذنيه! لِمَ ممنوع؟ هو مجرد عرض لحيوانات تقفز داخل حلقات نارية؟ عرض كثيرا كنا نحضره ونحن شباب.

- لستُ كبيرة إلى ذاك الحد يا صغيري.

ابتسم البائع ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه الصفراء مأكولة الأطراف، لمعت عيناه بالخباثة والمكر، قال لي بصوت لا يسمعه سواي:

هناك يا جدة بُقعة سحيقة من نفس كل إنسان، ثمّة بها مرآة، ربما تقْبع قرب منطقة اللاوعي.. ربما لا يمكنكِ أن تقول أنها مجرّد مرآة تقع هنالك فهي تكشف دواخل ما لا تراه الحدقة الخارجية. أتعلمين يا كهل ماذا أرى الآن! أرى بها طفيلية تكافح وتعيش على نظام رياضي، هرمة ممتلئة بالأمراض والأحزان.

هنا تخدر سمعي وانفصلت عني أحاسيسي، ضرب السفيه الذي أصبح في رمشة عين.. ابن خلدون بكلامٍ لا يستحق السمع أضعف أوتاري.

ربما قد طعنت في السن في نظرك، وأنت وأمثالك عديمو التربية لا أهتم بكم.. أضف أن ساقاي أصبحت لا تحملاني فاضطرت إلى الاستناد على عكاز لكن كبريائي لم يضعف يوما كي اضطر إلى الاستماع لكلامك الماسخ!

لم أدرك كيف مر عليّ الوقت أثناء لحظة حديثه البغيض، أثناء وقوفي محطمة الكيان.... لم تكن تلك لحظة على الإطلاق، كنت، كنت وكأني في عالم آخر، بل هو بحد ذاته عالمي لكن الزمن حولي.. مختلف.

كنت الوحيدة التي تسندها عصاها! كنت الوحيدة التي أمتلك خصل شعراء بيضاء ولولا حجابي السماوي لظهرت للعيان، كنتُ الوحيدة التي يُنظر إليها بنظرة شفقة..

- خالة رواسي.

التفت إلى قائلة العبارة وكأني دمية لعب بها مالكها بعنف.. فتحطمت. كانت شابة ذات طلة مريحة للقلب، شابة تعرفني ولا أعرفها.. فسألتها عن هويتها، لتجيب عليّ:

هذه أنا هيام.. صديقة ابنتك قمرية، كيف حالك يا خالة؟! وكيف حال قمر؟ مضت سنوات على آخر لقائي بها.

يا سبحان من خلق، بالرغم أن المكان مُحيك بظلالٍ سوداء لكن ملامحها تجلّت لرؤيتي بشكل جميل.

لقد تغيرت كثيرًا.. كانت قزمة مزعجة وبعض الشيء قبيحة والآن هي أم يقف بجانبها طفلها، أصبحت جميلة.

- الحمد لله بخير يا ابنتي، وأنتِ؟
- الحمد لله بأتم صحة... أهذا حفيدك المختبئ خلفك؟

ابتسمتُ وأومأت برأسي.. ثم نظرتُ إليه وأنا أعرف به، هو خجل مع الغرباء ولكن سرعان ما يتحول هذا الخجل الجميل إلى جرأة وقليلُ من الوقاحة.

المسكين، تحولت سعادته إلى اكتئاب..

- يا خالة.. سأدخل السيرك مع زين، ما رأيكِ أن ينضم لنا نور؟ هناك تذكرة إضافية على أي حال.

نظرتُ إلى نور الذي كان لتوه سينفجر من البكاء والآن عادت الشرارة إلى عينيه اللامعة، فوافقت على اقتراحها الذي عرضته بشكل مهذب، هي بالتأكيد رأتني وأنا أهزئ من قبل صعلوك..

جلستُ -بعدما أخبرت نورا بأن يلتزم الأدب معهم- على كرسيٍ قواعده بلون الزيتونِ وخشبهُ بلون أوراق الخيزران.. نظرتُ إلى السماء الداكنة المزبرجة بأضواء المهرجان، ثم لمحتُ التربيع.. فاستذكرت آية الرحمن (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)

منازل القمر تذكرني دائمًا بمراحل عمر الإنسان، حيث الابتداء بالضعف حتى إذا ما انتصف اكتمل وأصبح قويًا، رُدّ تدرجيًا إلى سابق عهده ضعيفًا ثم يأفل.. أحطنا برحمتك يا الله... فالدهر لا يرحم؛ يأكل ما تبقي من عمري.

وبالرغم أن حال القمر كحال البشر في البدء والانتهاء، لكنه ليس كحال البشر في طرح الطيب والضياء، حسبي الله على البائع السفيه صاحب القرط.

فتحتُ حقيبتي أبحث عن منديل أزيل به ندى جفني، فلمستُ كتاب! هل دسه الأطفال في حقيبتي؟ كم مرة أخبرهم بألا يلعبوا بأغراضي!

حررته بصعوبة من أنياب الحقيبة النهمة.. لأجده مذكرتي القديمة.. متى كانت أخر مرة رأيته؟، لا أتذكر جيدًا.

بدأت عملية النبش عن نظارة القراءة، عليّ أن أغير هذه النهمة فهي تطمر الأشياء بل تبتلعها!

يا رحماك يا الله، إنها أقدم مما توقعت..! ورقها متهالك للغاية! أكانت آخر مرة أنقش بها قبل ولادة نور، قبل سبع سنين عجاف!

قلبتُ المذكرة سريعًا، ثم استفتحتُ بمقدمة المذكرة.

قرأت سرًا ما كُتب فيها:

"غالبًا نحن لا ننسى، بل نتناسى.

فالذكريات لا تُمحى.. بعضها يُحفظ في أرشيف الذاكرة ومع مرور الأيام تتعصرن، وبعضها يتحول إلى نقوش خفية داخل الذاكرة. ويعتمد تحفيز الذكرى على حبر النقش، كلما ثقل.. كلما بقي وكان تحفيزه أسرع."

ويعتمد تحفيز الذكرى على حبر النقش، كلما ثقل، كلما بقي، لسانُ بليغ!، لربما كان له وقعٌ في النفس آنذاك!

أعدتُ الكَرَّة وقلبت أوراقها العديدة، أهي مذكرة يوميات أم موسوعة؟. كيف لم أنتبه على ثقلها؟ هل إدراكي في مسابقة اضمحلال مع أعضائي!

بعد تصفحٍ عجول فضولي لمعرفة المكنون عثرتُ على الكثير من الورق المجعدِ والقليل جدًا فارغ.

اخترت ورقة عشوائية من الكتاب، كانت بالحبر الأزرق، فداهم ذكرياتي ذكرى كانت مطوية في ثنايا الفكر.. أني خصصت لبعض الأحداث ألوان مميزة..

نظفت حلقي وبدأت بالقراءة الصامتة:

"الأثنين١٠ فبراير ٢٠٠٣

هذا اليوم له عدة عصور. عصر قديم وعصر حديث وعصر الحقيقة وعصر الوهم عصر الطفولة وعصر الألم...

والآن، فقط الآن، التحم داخلي كل عصر منهم وخرج مني زوبعة بكاء على ما فقدناه، على ما فقدته اليوم مقابل حياة كاملة، والدتي."

أغشاني الهدوء فسمعتُ داخل رأسي صمت سَفَّاكٍ وهدوءٍ واجمٍ، كأني أخشى اندثار هذه الأحاسيس: إذا.. كان اللون الأزرق لوالدتي.

قلبت الصفحات هذه المرة بترتيب التواريخ أبحث عن صفحات زرقاء..

"الثالث والعشرون أغسطس ٢٠٠٤

الأمر أشبه بأن تقف طويلًا دون أن تصل دون أن تسقط حتّى، بأن تتلوّى ألمًا وبُكاءً دون أن يُعيركَ الذي تتلوّى من أجلهِ أي اهتمام، وكيف سيهتم وهو تحت التراب!"

"السابع من أبريل ٢٠٠٥

آسفة لأني أصبحت لا أنقش كثيرًا..

وجدتُ الصعوبة في النقش فأصابعي أصبحت ثقيلة عن قبل وأحداث أيامي المكتظة تخف وتضيع.

لكني سأنقش بعضًا من جمل (كان) وأحاديث خفية، لعلي أرتاح من ثقلها.

والدتي الطيبة كنت أقول عنها دائما" لو لم تدخل الجنة فمن سيدخلها؟

كانت يداها وكفاها هي كفوف الراحة."

كانت لا تفارق سجادة الصلاة بشكل غريب..

كانت تضحي من أجل والدي بالغالي والنفيس ولا تبخل علينا بعاطفتها وقلقها أثناء مرضنا.

وكيف كانت لا تنام الليل كي ترعانا وتروي لنا أقصوصة.

تذكرت بالأمس عند دعائي، يومًا من فترة طفولتي... سمعتها بالصدفة وهي تدعو بصوت مرتفع بينما الكل نائم، سمعتها وهي تدعي لجدي وجدتي بالرحمة والغفران، وتدعي لبقية أفراد الأسرة أن لا يصيبهم المكروه أبدا..

دعت حتى البكاء بينما كنتُ أتلصص عليها من خلف باب الغرفة. تذكرتُ اليوم بعد صلاتي للسنة: أني سألتها في إحدى المرات وقلت: ماما، كم ركعة تصلينها في اليوم؟

أجابت علي: ليس بالعدد يا وتيني. المهم هو حضور القلب، أحبِ ربكِ ولن يتركِكِ.

كانت هذه الجملة التي جعلتني أصلي كثيرًا، أصلي في كل مكان ولأي سبب.. أصلي لله وأصلي للحب الذي كانت تغدقني به.. اشتقتُ لكِ يا أمي."

يا لسعادتك، قد حفظ أحفادك الأفعال لعبارتك (أحب ربكِ ولن يتركك) ظهرًا عن قلب، عبارتك التي أنارت لي دربي.. عبارتك التي أنستنيها أشغال الدنيا ويصونها جسدي..

قالها ذات مرة كريم عن لسان قائل: لولا النسيان لمات الإنسان لكثرة ما يعرف، لكني ميتةٌ بذاكرةٍ هش مع جرحٍ وسط أضلعي.. كنتُ أظن أن اشتياقي وندمي سيقل كل يوم أقترب به للموت.. لكن خاب الظن، وظني بالله جميل.

أكملتُ القراءة و لا أعلم ماذا دفعني لأكمل.. أهو الفضول عن كيف كنتُ أفكر وأنقش، أم لأني لا أريد أن أفسح المجال لملاحظة عقلي وحدقتي غياب الأجزاء القاسية في إطار الذكريات، وتوقفه عند التفكير والتأمل وربما البكاء تحت تأثير: يا ويحيكِ، كنتِ عاقة.

"الثالث من مارس ٢٠٠٨

ماتت أمي وأنا لم أفكر بخدمتها..

دبلت وردتي وأنا ما زلت انتظر عبقها، كنت أريها ما اشتريت، وما أعطيت، ولم أسألها ماذا تحتاج، أو حتى أهديت، عودتني أمي على الأخذ حتى نسيتُ العطاء، وتحول بي الحال إلى وحش لم يرزق حتى برضاها، ماتت أمي وحيدة في غرفتها، وسط أربع جدران مخيفة، لم أفكر بزيارتها أو حتى أن أرفع السماعة للاطمئنان عليها، ماتت أمي

وحيدة، ماتت أمي ولم أعطها، ماتت أمي ولم أخدمها، ماتت أمي في يوم عرفة حيث الكل مشغولٌ به، حتى لا ترهقني، ماتت أمي وأغراضها مرتبة ونظيفة.. حتى لا تتعبني، ليتها تعود.. لأخدمها، ليتها تعود.. لأتحدث معها، ليتها تعود.. لأجلس بجانبها فقط، ليتها...ليتها"

مررت بخواطر عابرة أو كما ظننتها، لكن ما كان عابرًا هو: دمعي الذي استعصى البقاء في محجره.. والشهقة التي توقفت في حنجرتي..

فتحتُ الشنطة أبحث مجددًا عن المناديل. حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت، إن لم أغير هذه الحقيبة الفظيعةِ النهمةِ لن أكون رواسي التي أعرفها.

وبعد دقيقة كاملة من البحث عنها وجدتها داخل المعدة الخارجية.!!

صدق حبيب الله، كل أمر المؤمن خير..! انشغلت بالبحث ومنع نفسي عن السباب فتحجر الدمع! فتحت صفحة جديدة كالطفل المتلهفِ، وأكملت القراءة:

"الرابع عشر من سبتمبر ٢٠٠٨

سأنقش اليوم أصعب شعور راودني.. الندم.

الندم.. لأني أعطيت كل ما أملك من روح وحياة لأطلس.

والندم الأعظم.. أني لا أستطيع العودة إلى الوراء وإصلاح ما اقترفته بحق والدتي.

لن أنسى هذا الشعور يومًا.. لأني أستحق أن أعيش بندمي.

حاولت الانشغال عنه ولكن لا فائدة حتى إذا أشغلتُ نفسي بعمل ما.. أفكر بنفس الموضوع، أتذكر كل الأحداث، أتذكر كل شيء قلتهُ وكل شيء فعلتهُ.

لم أكن أفكر للحظة أنني سأندم عليه، وبدلًا أن يقل الندم يومًا بعد يوم.. أراه في تزايد؛ لأنني كل يوم أتذكر شيئًا جديدًا لم أنتبه أنه خطأ.. وهكذا فتكثر عدد الأشياء التي أندم عليها..

أصبحت أحتقر نفسي وألومها دائما على منية والدتها."

لم أُقلب الصفحة، فقد كان مكتوب بمقابلها:

"الثاني وعشرون من سبتمبر ٢٠٠٨

كان كريم اليوم يشاهد التلفاز.. ثم دارت معركة بيني وبين كريم اليوم.. من أجل (من سيمسك بجهاز التحكم).. هذا الفتى يتشرب كل يوم من عناد أطلس..

انتصرت رغم أنني سُقيتُ بمطر كلماته، لا بأس.. فأنا صاحبة الكلمة العظمى هنا.

غيرت قناة الأطفال إلى غيرها.. كان برنامج لتفسير آيات القرآن.

قرأ الشيخ الآية وفسرها: (لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ)

أي، كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا، فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم.

جعل تفسيره من تفكيري المتشبث بالماضي ومشاعر الندم التي تثقل في قلبي.. تقل بالتدريج..

ثم تفكرت وتدبرت في أيامٍ مضت..

لم أشاهد أمي تبكي يومًا، كانت قوية وعزيزة دائمًا،

كانت تبتسم لنا وتهتم بنا بالرغم من إصابتها بالخبيث... لم لا تكون أمي قدوتي؟"

بحثتُ عن عباراتٍ زرقاء أخرى.. كانت هذه الأخيرة!

فاستقريتُ على ورقةٍ فارغة وبينما أمنع سيلان أنفي من مبارزة دمع عيني إذ سطرتُ بإصبعي:

"اليوم الأحد.. لا أتذكر أي شهرٍ نحن

اعتذر لأني أستخدم الشفاف من الحبر ولكن هذا ما أملكه الآن

بعد رحيلك يا والدتي.. فعلًا، كنتِ أقرب مما كنتِ

كل شيء أصبح يذكرني بكِ، بل كل شيء عبارة عنك.

تركتِ رائحتك بين ملابسي، تركتي وصاياكِ ترعاني.

تركتِ أيامك في يومي وذكريات لا تنتهي.

تركتِ شيء في كل شيء بالرغم أنك لم تكوني معي.

ما زلت أحكي عنكِ لكل مرزوق من أبناء أطلس.

أحيانًا.. أرى طيفكِ فيما تبقى لي من أيام.

شهريًا.. أزور طفليك بعدما تشتتوا بكل مكان.

غالبًا ما أتذكر عقوقي لك عندما أتعب وأخذ الدواء.

نادرًا ما أستمع إلى أغانيك المفضلة ومنهم أم كلثوم!

دائمًا ما أتذكر وقفتك ضد الجميع ورفضك بأن أصبح أُمية عند قراءتي للقرآن.

ما زلت أذكرك وكثيرًا في دعائي وأنا مؤمنة بأنك في روضة من رياض الجنة

فمن سيتحمل ما كنتِ تعيشيه؟ فالله، إن كان لغيرك فهو لن يتحمل.

أتعلمين؟ أني وجدت دربي قد انقطع به الأمل بعدما كانت مسيرة الحياة لا تكتمل إلا بكِ، فرزقني الله أشخاص حولي أرى في سيماهم بارقة أملي.

كنتِ دائما تلقبينني وتيني.. والآن لقبي هو جدتي..

والآن.. الزمن ينقشني لأدخل تاريخ النسيان.

أسأل الله أن يجمعني بكِ في الفردوس."

كم هو قوي ومرهق أن يقف البكاء في داخلي ويُخفِت من صوته، بالمقابل كم هو قوي نزيفه الطويل الذي كوّن له مجرى بأنفي..

يا ترى هل سيذكرني أحد عندما يصبح اسمي ورقة خريف سقطت من دهرٍ؟ أم سيسوق لي المولى من سيدعي لي ويتصدق!

ثمة ما يضايقني! ثمة عينٌ تراقبني..! أشعر بحرارة نفس مخلوق تقترب مني.

استدرتُ يميني فرأيتُ شابة أسرتني بعينيها الخضراوين اللامعتين.!

كانت ترتدي عباءة رمادية اللون من المشجب بوشاحٍ عميق.

تابعتها وهي تخطو وتخطو وبخفة ورشاقة واضحتين جلست بجانبي فوق الكرسي الزيتوني، لم تكن تضع أي مساحيق ومع هذا كانت كالبدر في ضيائه.

أفاقني من سرحاني فيها وزحمة الأفكار هزة الكرسي الناتجة من انتصاب ظهرها بظهر الكرسي، فأعدتُ نظري إلى موسوعتي.

وعلى حين غرةٍ مني ابتسمت ثم خرج سؤال من ثغرها المطلي بلون الخربز:

لِمَ كسرتِ قلبكِ؟

عُقد حاجبي نتيجة رمقي لها بنظرة تعجب سألتها عن قصدها. فأكملت حديثها:

أتعلمين يا جدتي نحن كالزجاج، الحزن والبكاء يكسر قلوبنا. أليس لديكِ أبناء؟

- بلى وأحفادٌ أيضًا.

- عائلتكِ تحتاجك ولكن بقلبٍ سليم.

تابعت حديثها وأنا كالبكماء من جرّاء صاعقة لم تكن ملحوظة:

الحياة: جميلة تحتاج منا القوة، والصبر، أبناؤنا: يحتاجون حناننا، ومتابعتنا، أزواجنا: يحتاجون حبنا، ووقوفنا معهم.

أما أحبابنا الذين غادرونا: فلهم منا الدعاء، والحديث عنهم وعن ذكرياتنا معهم..

هكذا كانت جدتي توصيني قبل أن تنتقل إلى الرفيق الأعلى.

بالرغم أن ابتسامتها كانت أخاذة لكن عيناها حزينة.. حزينة للغاية...

هل أجاريها بالحديث؟ لعلها تريد من يستمع إليها.! أم هي خطة مُحكمة من ممثلة بارعة لتسرق عجوز مثلي.! يا لها من فتاة سيئة!

- ابنتي، لا يخدعنك مظهر هذه الحقيبة كما خُدعت، والذي بيده نفسي إنها فارغة.

ظلت ترمقني بعينين غائبتين عن كل شيء، لا تنطقان بشيء ثم انفجرت ضاحكة، هل قلتُ شيئًا مضحكًا دون أن أشعر!

وبعد أن هدأت ضحكتها رويدًا.. رويدًا.. مسحت الدمع العالق في رمشها وتحدثت:

- لمحتك بالصدفة في طابور التذاكر، استمعت بالصدفة إلى حديثك مع إحداهن، وبالصدفة أيضًا رأيتك تشهقين.. فقررت أن أجعل الصدفة قدر. وإجابةً على سؤالك.. لا، لن أسرقكِ.

همهمت قليلا وأنا أقذفها بنظرات حادة، إذًا... تسلية نفس وإضاعة الوقت، نزعتُ النظارة وقلت دون أن أنظر إليها:

صُدفك أعجب من الأفلام يا ابنتي! آسفة، لم أقصد أن أقلل من احترامي لك.. لكنكِ تشبهين جدتي، جميلة الروح وخفيفة الظل.. أنا حقًا آسفة إن كنتُ ضايقتك.

بعد مضي دقيقة أو اثنان... سألتها دون تفكير بطرية عفوية عن اسمها، مضت عدة ثواني وما زال سؤالي يسبح في الهواء، رفعتُ حاجبي متعجبة ثم بصوت مرتفع:

سبحان الله وبحمده.

وأخيرًا خرجت الفتاة من شرودها المفاجئ، ابتسمت ابتسامة لا حياة فيها وبتمتمة أجابت: رجاء.

لوهلةٍ شعرتُ أني ربطتُ بين 'رجاء لا تسألي' و 'رجاء هو اسمي' فبادرتها بالسؤال لتحطم الارتباط.

ابتسمت برقة وأجابت: إنه اسمي. لا تأخذِ وقاحتي في السؤال.. لكن ماذا كنتِ تقرأين؟

- اسمك جميل يا رجاء..

كنتُ أقرأ مذكرات.. بل نقوش غير مكتملة، مفتتة ومنها الوهم أيضًا.

- هل أستطيع أن ألقي نظرة عليها، أم بسؤالي أتعدى على الخصوصية؟

ناولتها المذكرة دون أن أناقشها أو حتى أتردد. فتحت المقدمة... ثم أغمضَت عيناها اليسرى بينما أبقت الأخرى مفتوحة على وِسعِها.. تحاول أن تقرأ ما كتبتُ؛ ثم رمقتني بنظرة محتواها (أهذه شعوذة!).

لم يستغرق الأمر منها دقائق حتى استطاعت التمييز بين الحروف؛ وهذا دليل على أن مقاومة والدتي للتقاليد وإن المرأة لها حق التعلم كالرجل لهم لم يذهب هباءً منثورا.

رفعتُ لها حاجبي الأيسر وسحبت شفتي إلى الجانب الأيمن.. يا لها من نبيهة فقد أدركت المغزى من حركتي التي أدرت بها الافتخار!

- لا تحاولي يا جدة.. فالخط حقًا سيء.

قرأت بعجالة ثم أبدت نظرة ليست ساخرة.. بل أعمق من هذا؛ كالطفل عندما يشك بمصداقية حديثك عن إفادة الخضار له.

- جدتي.. أهذا نقشك الخاص؟

نعم، ناديني خالة رواسي.

- خالة رواسي.. عندما أصبح رمادًا هل سيتذكر الناس اسمي وأفعالي؟

لا تومِئ فهذه كذبة.. الإنسان أُخذ من النسيان، ولم يرزقنا الله هذه النعمة عبثا!

لم تنتظر مني حرفًا، فهي تعلم مراد حديثها قبل تحريره من حنجرتها.

توقفَت عند صفحة بالحبر الأخضر.. أنا أتذكر لمن هذا اللون الكريه،

استأذنتني بهزة من رأسها ورفع حاجبيها لأعطيها الإذن بإيماء متكررة سريعة.

"ما زلت لم آلف هذا المكان وفي كل مرة أحاول ألا أقارن.. أفشل.

ما زلت أحاول أن أثبت لعائلته أني لستُ الفاعل.. لكن أفشل.

ما زلت أحاول بالاحتفاظ بآخر ذرة من كبريائي وثقتي.. لكني فشلت.

الشيء الوحيد الذي لم أفشل بالاحتفاظ به هو: بقائي على قيد الحياة لأجل أطفالي."

ألصقت الصفحة بوجهها، نظرت بحدة.. ثم انتقلت بين الصفحات بحركاتٍ عنيفة، أظنها طوت بعض الصفحات... ثم قذفتني بسؤالها: خالة. لِمَ الصفحات التي كُتبت بالأخضر لا تاريخ لها؟

- ألهذا كنتِ كمجنونٍ يبحث عن ضالته؟ دون سبب.. هو فقط لا يستحق أن أذكره في تاريخي.
- لم؟
- السبعون عذرًا قد فرغوا لدي.
- زوجك؟

- كان.

ابتسمت وكأنها تخبرني لعله خير..! ثم تابعت القراءة ويبدو أنها استهدفت اليابس من العشبِ؛ الكريه من الألوان.

"لو أخبرتكِ أن هذا الأمر لن يجلب لنا سوى الألم لو حذرتكِ أن النار ستحرقكِ؟

هل كنتِ ستستمرين في الأمر؟ هل كنتِ ستسمحين لنفسك بفعلتها؟

هل كنت ستدعيني أرشدك وأنتِ عمياء في الظلام، في الصمت.. حين لا يكون أحد بجانبكِ؟

وعندما أجبته.. بأني لا أستطيع أن أمنح الثقة، هجرني.

لم يعطني العذر كما أعطيته!

هل أرسل له عذري؟. هل أرسل له: أن روحه في غُربة، والفِكر في شُرود، والقلب أعْياه غيري. أما جسدي أضناه المرضُ."

كانت تقرأ بابتسامة واسعة، ثم خُسفت تمامًا تحت رماد الحزن..

كانت تقرأ بنبرة مرتفعة، ثم اهتزت وانخفضت وصولًا للقراءة الصامتة.

لم تُحرك ساكنًا لدقائق ثم تمتمت وهي تقلب الصفحات:

يا لحزنك، لا خلاق لكِ معه.

أليست صغيرة على الحزن؟ لِمَ لا تمرح كالأخريات!؟ فشبابها فان.

ألم تعيشيه كما ينبغي ضاع منها؛ أين القهقهة التي ترج الأرض رجا؟، التصرفات الصبيانية والجرأة المحدودة، الوقوع في الخطأ مرارًا دون العدول عنه!. تأكدتُ الآن أن شبابي كان كما ينبغي.. حار وحيوي.

أصابني سهم الفضول عن رفيق لليلتها؛ أهو العائلة أم زوجٌ أو حبيب!؛ وعن سبب جلوسها بدلًا من اللهو؟؛ فسألت وأجابت دون أن تكلف نفسها بالنظر إلي:

- ظللت أؤمن أني بخير وأن ضوء الغد سيمحي رعب الأمس، حتى وجدتني مستيقظة في الثالثة فجرًا أفكِّر في كُل شيء وفي لا شيء في الوقت نَفسه؛ اكتشفتُ أن الضوء فقط ضوء! وأني أعيش في سجن روحي.. قبل أن يكون سجنًا خارجيا. اكتشفت بعد سنة من استعمار المرض؛ والموت باليوم ألف مرة أن العافية أغلقت عينيها عني. فقررت أن أرفه عن نفسي قبل أن يفتحوا صدري بأن أزور ملك الغابة كي أضحك عليه وأخبره بملأ الفم: أنا أفضل منك يا عديم الحيلة.. تفكير طفولي؛ أعلم.

وفي طريقي إلى هنا، ولن أخبرك كيف تسللتُ من المشفى، رحتُ أسترقُ النظر إلى السماء المنبسطة أمامي، ما زالت كما عهدتُها زرقاء عالية إلا أنها لم تكن صافية، فالغيم الرمادي تسلل إلى كبِدها فكساها تشوهًا.

ابتسمتُ...لن أكذب عليك، عبستُ وأنا أتذكر صورتي.. كيف وقفتُ أمام المرآة -قبل سرقة العباءة من إحداهن- أرتدي أسلاكًا وتلطخني بقع

الموتِ، لكنَّني ـوقبل أن يطولَ وقوفيـ حدّقت في تلك المريضة التي تطلّ عليَّ من المرآة.

إنها هي، نعم.

أعرفها جيدًا، أعرف أنها كانت تحب ورق العنب الحامض من صنع والدتها، وأعرف أيضًا أنها كانت تحب الحياة وجنونها.. وأعرف أيضًا.. أن زيارتها للأسد ما هي إلا غطاء لتمردها وتوديع لحياتها.

صمتت قليلًا وهي تغالب بكاءها.. ثم ضبطت أنفاسها للحديث مجددًا:

وأعرف أنها الآن تعلم بأن الله لم يجعل للموت زمنًا، لم يجعل له عمرًا، مكانًا وسببًا.. ليعيشنا الله فيه.. ففي أي مكان ولأي سبب ستودعين الدنيا هكذا فجأة.

صُدمتُ من سيل الحروف الذي سُكب في أذُني دون سابق إنذار، فاندفعت بحديثي لها:

- معك حق.. لكن أن تنتظري أو تخافي الموت؟ لقد قتلتِ جميع حركات الدنيا...

قابلت اندفاعي بهدوء تام، قالت بنبرتها التي لم ترتفع منذ جلوسها بجانبي:

- آسفة أزعجتك، الثرثرة ليست من طباعي. على أيٍ.. هل أنتِ من تركه؟

والآن.. لدغني دبور الصمت في لساني؛ جميع ما ذقته طيلة الخمسين عامًا ما هو إلا حبة رمل أمام صحرائها... آه يا رواسي أنتِ من كان يشتكي للصبر؛ أما هي فيشتكي منها الصبر.

تذكرتُ مقولة صديق والدتي العمر ليس بعدد الأيام بل بعدد لطخات الأحداث..

الآن، فقط الآن فهمت مقصدها.

أجبت على سؤالها بلا، هو من اقترح الفراق.

ظُلل المكان للحظات بسُحب الصمت ثم انجابت بتهادي صوتها المنكسر، الحزين: عاملنا بالعدل يا الله.

- بل عاملنا بفضلك يا الله.
- أليس الله عادل، يعدل بين عباده؟
- بلى، لكن إن عوملنا بالعدل ضِعنا.. هلكنا. أعطيك مثالا.. ولنفرض أن حسناتك التي جمعتها في دنياك ستبقيك في الجنة خمسمائة سنة.. ثم ماذا؟ ستطردك الملائكة؛ انتهت فترتك!

ولهذا نسأل الله أن يعاملنا بفضله وكرمه، بفضل الله سيفتح لك أبواب الرزق والسعادة والطاعة وأنتِ لم تسعي إليها.

صمت قليلا والحق يقال أخرستني كحة صادرة من جوف صدري، بعد أن هدأت أكملت حديثي بصوت مبحوح: كوني مطمئنة، فالله لم يخلقك للحزن.. (فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ). هي مجرد تربية ربانية للرجوع إليه عند الانكسار. ولم يخلقك لتعاني! مرضك ما هو إلا

إشارة لمحبة الله لك.. إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه، وإن سخط نفاه وأقصاه.

بكت دون نشيج؛ مواريـة دموعهـا، لـم يشـعر بحرارتهـا أحـد، سـاترةً وجعها؛ فلم يعرف مكمنه سواها.

وكل ما قمتُ بفعله هو محاولة، محاولة لاحتواء حزنها بتربيتٍ خفيف.

المسكينة، قد حفر الحزن والوهن إلى قلبها الوحيد المتعب فتشعب بداخله هامسا لها دون توقف: الموت أرحم.

قبضت على يدي الهرمة؛ متمتمة: كم وددت يا صديقتي لو أنّ يديك كانت رحمة، لتلمس بها العطب الموجود في روحي.

ومضت في طريقها بهدوء وصمت لم أتوقعه.

انتهت المحادثة؟ هي لم تكن محادثة فعلية! كانت أشبه بفضفضة لغريب.

أعانها وشفاها الله، فتاة قوية وإن كانت من الداخل هشة.

وعلى حين غرة مني.. وجدت عقد من الياسمين يلتف حول رقبتي، التفتتُ خلفي لتفاجئني هي مجددًا.. بعناق وعين حمراء تفيض بشيء من الدموع ثم قالت للمرة الأخيرة قبل أن تختفي تماما عن ناظري الضعيف: شكرا لكِ، أشعر أنني أعرفكِ منذ زمن.

أحببتك... كيف أصفه؟ لا لن أحكي عن حبي. فهو يرى ويشعر به ولا يتحدث عنه... أهديك مني سلامًا طويلًا حتى يفنى العالم وأفنى قبله.

سبحان الله، هي الأرواح الطيبة تألف وتُؤلف، يرسل لنا الله أشخاص نجهلهم تمامًا؛ لنتعلم منهم أنه لا فرحة دائمة ولا غمٌ طويل، نتعلم أن الكلمة ربما تبدو تافهة لكن على الآخر ذات وقعٍ شديد..

اللهم احفظ لي أطفالي وأطفالهم، فأنا ضعيفة القلب وجزعة المشاعر على أن أرى المس بهم.

- جدتي! ما هذا الطوق؟

طويتُ حبلَ أفكاري، والتفت إلى صرخة السعيد، كانت الابتسامة تشقه، شعرتُ بألم بفخذي وأسفل ظهري فور نهوضي من على الكرسي، يبدو أنه كما تخدرت الأحاسيس تخدرت الأعضاء أيضًا..

أجبت على سؤاله بجابة لعله لن يفهم منها شيئا:

أنه ذكرى من نقشٍ جديد...

٧٥٧٥٧٥٧٥٧٥